

السخرية السياسية في شعر محمد الأسمر

تميز الشاعر "محمد الأسمر" (١٩٠٠-١٩٥٦ م) من بين شعراء جيله بقدرة فائقة على الإبداع في مجال الشعر الفكاهي الساخروان لم ينزلق إلى حد استعمال الألفاظ العامية كما فعل معاصروه ممن أبدعوا فن الشعر الساخر المسمى بالحلمنتيشي الذي اختلف عن غيره بهذا المزج المتعمد بين الألفاظ العامية والفصحى مع الحفاظ على الوزن سليماً، والقافية محكمة.

لكن شعر الشاعر الأسمر الفكاهي احتفظ بالمهابة التاريخية للقصيدة الخيلية ممثلة في جزالة الألفاظ، وقوة المطلع، والعناية بالمحسنات البلاغية التقليدية وإلى جانب ذلك، التزم الشاعر "الأسمر" ما التزمه معاصروه الشعراء من عدم التبذل الخلقى، واختار لشعره الفكاهي موضوعات ذات مضمون اجتماعي خلقي، وحتى في أشعاره الشخصية التي مثلتها تلك المداعبات الإخوانية بينه وبين أصدقائه لم يزل قلمه إلى الإسفاف والابتذال وكانت سخريته دائماً "نظيفة" إن جاز هذا الوصف.

ومن روائع الشعر الفكاهي عن "الأسمر" ما خص به الحياة السياسية المصرية في عصره من سخرية مريرة، ونقد لاذع ، لما كان يسود تلك الحياة السياسية من تزيف وتزوير ومهاترات وسنختار منها مثالين:

الأول: انتخابات البرلمان:

تشكك الأسمري في جدوى الانتخابات النيابية ، وكان في مصر آنذاك مجلسان : مجلس للنواب وآخر للشيوخ ، وكان الأسمري يرى أن ما يجري في انتخابات المجلسين هو في الواقع "تمثيل" من السلطات الحاكمة على الشعب بدعوى اختيار "ممثلين" للشعب!! فليس هناك مجال لنجاح مرشح جاد يستطيع أن يعارض معارضة قوية، فالأمر لا يعدو كونه "تعييناً" مقنعاً، وإن تم في شكل انتخابات فهو يقول:

وقيل انتخابٌ قلتُ في الشكل وحده (كشوفٌ) و(أصوات) وكلُّ مُعَيَّنٍ
فما ناجحٌ إلا المرادُ نجاحه ولو أنه كلُّ على الناس هَيِّنٌ
لقد بات وادي (النيل) نهباً مقسماً ولا تطلبوا البرهانَ فالأمرُ بيِّنٌ

هذه الانتخابات الزائفة تجر على البلاد بلاء كثيراً، وبخاصة إذا أدت إلى إثارة الفتن بين العائلات، وبت الشقاق الذي قد يتطور إلى نزاعات مسلحة يسقط فيها القتلى والجرحى والشاعر "الأسمري" يوجه خطابه في أبياته التالية إلى الأمة ساخراً من فهمها لمعنى الانتخابات ونتائجها، فالانتخابات غايتها اختيار نواب يتفقون ويختلفون حول قضايا مجتمعتهم لكن اختلافهم لا يخرج عن حدود الكلام وتبادل الحجج ، أما أن يتحول الصراع إلى قتل وقتال فهذا مؤثر على سخر في تفكير الأمة، والتواء في فهمها للأمور، ودليل على انحدار مستوى الوعي السياسي لدى الأمة ،

فيقول شاعرنا :

دماءً بين أهليها تسيلُ فقَاتلُهُمْ وإن يسلمُ قتيْلُ
 طريقُ البرلمان طريقِ سلمٍ قُصارى أمرِه قالُ وقيلُ
 وألفاظٌ يدبُّجُها خطيبٌ وتصفيقٌ كثيرٌ أو قليلُ
 ففيم تحذمتوه طريقَ حربٍ وفيم القتلُ والهَمُّ الطويلُ؟!
 فيالك أمةً سارت فضلتُ وقد وضحتُ لسالكها السيلُ

ولم يكن مثقفو مصر وأدباؤها وصحفيوها في تلك الأيام- الربع الثاني من القرن العشرين- بمعزل عن الحياة السياسية، فقد نجح الأستاذ عباس العقاد في دخول البرلمان ممثلاً للأمة وسجن تسعة شهور حين دافع عن الدستور في مواجهة الملك فؤاد في قصة مشهورة، كما كان الصحفي اللمع الأستاذ "فكري أباطة" برلمانياً مرموقاً لعدة دورات. وحدث ذات مرة أن رشح أربعة من مشاهير الصحفيين أنفسهم ونجحوا في الفوز بعضوية البرلمان وهم الأساتذة، "مصطفى أمين" وشقيقه "على أمين"، و"جلال الحماصي"، و"كامل الشناوي"، وكانوا جميعاً أصدقاء لشاعرنا "محمد الأسمر" فأرسل إليهم تهنئة شعرية ضمنها تحذيراً شديداً من التقصير في أداء واجباتهم في البرلمان ، وطالبهم بالوفاء بما وعدوا به ناخبهم أثناء دعايتهم. وبأن يحذروا الكسل والخمول فقال مخاطباً إياهم:

تهنئاتي: ثم كونوا عندما قلتُم قبل دخول (المجلسِ)
 واحذروا (الكرسي) كم مرَّ به معشرٌ — غيركم ثمَّ نسي —

لا تكونوا فوقه مثل الذي
 أو كَمَن يهتف للزور به
 أو كَمَن ثروته تصفيقه
 أو كَمَن قيل له كُن فوقه
 أو كَمَن يشتم قوماً ظالماً
 أو كرهطٍ فوقه سييهاهم
 أو كَمَن نام به ليس له
 أو كعُريان رآه متجراً
 يحضراً - (الجلسة) مثل الأخرس
 فإذا الحق بدم لم ينس
 وهي عندي رأس مال المُفلس
 صنماً، جئت لهذا فاجلس
 فهو يعوي كعواء الأطلس
 عدم الفهم، وهزُّ الأروس!!
 من وجود فيه غير النفس!!
 فهو فيه قاعدٌ كي يكتسي -
 ثانياً : كرسي الوزارة :

وقد وقف الأسمر من مقاعد الوزارة موقفاً متشدداً، كما فعل معاصره الشاعر
 الفكه " محمد مصطفى حمام" في قصيدته الشهيرة التي قالها على لسان وزير
 يخاطب الكرسي الذي "التصق" به حيناً من الدهر ومطلعها:

تقبلتني بالرغم منك نزيلاً
 نشدتك يا كرسي إلا صحبتني
 ولم تتبرم بالذي أنت حامل
 وإني لأخشى أن يفرق بيننا
 وتشمت بي خصماً يروِّي نفوسهم
 فلا ترجُ مني - الدهر - عنك رحيلاً
 طويلاً ولم تخطب سواي خليلاً
 فإني لأخشى أن تكون ملولاً
 فتورثني حزناً عليك طويلاً
 هواني ويشفي للصدر غليلاً

أما "الأسمر" فلم يسلك مسلك حمام الشديد السخرية من نفسية الوزير المتشبت بكرسيه، وإنما جاءت سخريته ذات طابع وطني عام، فلم يشغله أمر الوزراء بقدر ما شغله هذا التقلب المستمر والتغيير المتوالي للوزارات إرضاءً للقصر الملكي أو السفير البريطاني ولكنه لم يستطع الإفصاح عن كل ما كان يختلج في صدره من مشاعر فقال متحسراً على أحوال مصر آنذاك:

تَرُوحُ وزارة وتجيئُ أخرى	ومصرُ - تُقلِّبُ النظراتِ حيرى
تَشِيمُ فلا ترى إلا بروقاً	كواذبَ ربما أمطرَنَ جمراً
فيا وزراء مصرَ - بكل عهدٍ	لقد ملَّ الروايةَ شعب مصرَا
أُجمِجِمُ بالمقال وإن أشفى	لنفسى - أن أقول القول جهرا
أروني شاعراً حُرّاً يُغَنِّي	بما أهوى فليستُ اليوم حُرّاً
تَعَشِّقُنَا وصالحنا وهمنا	بها ومصالح الأوطان أخرى
فَوَا حزنا لمصرَ - جرت رحيقاً	لمعتصِرٍ - يُجرُّهَا الأَمْرَا
عَجِبْتُ لها، تفيضُ بكل خيرٍ	ولا تَلْقَى على الأيام خيرا
بها ما شئتُ من قمح وقطنٍ	ولكننا نجوعُ بها ونَعْرَى

ولكننا نراه في قصيدة أخرى يبدو أكثر جرأة، وأشد صراحة فهو يصف مقاعد تلك الوزارات بأنها تحمل وزراء هم في الحقيقة دمي يحركها اللاعبون بها كيفما شاءوا، بحيث إذا تخلوا عنها سقطت وتحطمت والإشارة هنا تأتي واضحة

إلى تدخل بريطانيا السافر في تأليف الوزارات التي تأتي وتذهب وفق مشيئة المحتل الغاصب، فيقول الأسمر:

وزراتٌ يُراحُ بها ويُغدى فقلُّ للحاملين لها رويداً
دُمى خَزَفٌ، وألواحٌ زُجاجٌ وإن لاحت حداثداً أو أشداً
إذا يدُ سانديها أغفلتها تبدي أمرها فيما تبدي
هوتٌ فإذا بها متحطّات ولو لبست من الفولاذ سردا

ويوجه الشاعر "الأسمر" خطابه صريحاً إلى السفير البريطاني ومن يقفون خلفه من سادته الذين يحكمون مصر من قصورهم في لندن، فيصف أولئك الإنجليز بأنهم لا عهد لهم وبأنهم لا يحفظون حقوقاً ولا يرعون عهداً، ولا يرقبون في الموالين لهم إلا ولا ذمة، بل إنهم يضربون بعضهم ببعض، ويؤلبون بعضهم على بعض كما فعلوا حين فرقوا بين سعد زغلول وعدلي يكن، وبين "النحاس" و"مكرم عبید"، وغيره من نجوم ذلك الزمان، فيقول:

فيا أبناء (لندن) بعض هذا كفى عبثاً بنا، عهداً فعهداً
إذا شدتُم هدمتُم بعد حينٍ فمَن أحييتُموه فقد تردى؟!
وليس لكم صديقٌ أو عزيزٌ ولكن تبغون الكلَّ عبداً؟!
وقد تستبدلون بذلك هذا ولا تحشون من أحدٍ مرداً
ولستُم ذاكرينَ لذلك وداً ولستُم حافظينَ لذلك عهدا
تُدِيرُ يداكم كأساً سقيتُم بها من قبل (عدلياً) و(سعدا)

إذا هيأتُم مَهْدًا لِقَوْمٍ طَوَيْتُم في ثنايا المهْدِ لِحَدًّا!!
 ثم يوجهه خطابه إلى وزراء مصر، أولئك المذبذبين الذين يقبلون أن يكونوا
 قطعاً في رقعة شطرنج يحركها القصر أو تحركها السفارة. فهم يسرون حسب ما
 تسير بهم أمواج السلطة التي جاءت بهم إلى مقاعدهم، فيقول:
 فيا وزراء مصر— بكل عهدٍ أرى عِقْدَ الوزارة صار قيّدا
 وكلُّ سفينةٍ نزلت ببحرٍ أطاعت موجّه، جَزْراً ومَدًّا!!
 ولم يختلف الأمر كثيراً بعد ثورة ١٩٥٢م، فقد ظل أعضاء البرلمان "يعينون"
 في صورة منتخبين، فقال الشاعر الشاب "هاشم الرفاعي" يصف أولئك النواب في
 أول برلمان بعد الثورة مخاطباً عبد الناصر:
 هاهم، كما تهوى، فحركهم: دمي لا يفتحون - بغير ما تهوى - فما!!
 فهل تغير الحال كثيراً بعد ٦٠ أو بعد ٥٠ عاماً من تلك الأحداث؟! لا تظن. !!